د . احمد طالب الابراهيمي

في طريق نهضة عربية جديدة

انه لشرف كبير (*) أن تتاح لي الفرصة لتقديم التحية الى المشاركين في مؤتمر الادباء العرب العاشر ، باسم الرئيس هواري بومدين الذي يتمنى لكم كل نجاح وتوفيق ، وباسم جبهة التحرير الوطني الجزائري ، وباسم مجلس الثورة والحكومة ، وباسم الشعب الجزائري . واني لارجو لكم اقامة طيبة في هذا البلد الذي يستقبلكم استقبال الاخ لاخيه .

منذ عهد ليس بالبعيد ، أراد الاستعمار أن يسكت أصوات الوطنيين الجزائريين الذين كانوا دائما ينادون بأن « اللغة العربية هي لغتنا » ، فما كان منه الا ان اتخذ قرارا بوجوب اعتبار اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية . وكأني بكم ، اذ تعقدون لاول مرة مؤتمركم هذا في ارض الجزائر المستقلة ، تؤدون واجب التكريم نحو الشهداء الذين جادوا بأرواحهم الطاهرة ، لكي تستعيد اللغة العربية مكانتها كلغة قومية في بلادنا . واسمحوا لي أن أضيف بأن انعقاد هذا المؤتمر في قصر الامم لا يخلو من دلالة . فهذا المكان الذي تجتمعون فيه قد احتضن في السنوات الاخيرة مؤتمرات كانت مخصصة للكفاح الذي تخوضه الدول العربية والاقطار الافريقية وبلدان العالم الثالث ، على الصعيد السياسي والاقتصادي . ان اجتماعكم في هذا المكان ـ والثورة الجزائرية في مسيرتها المظفرة خير شاهد على ما نقول ـ ان اجتماعكم في هذا المكان يعني ان الكفاح على الصعيد الثقافي لا ينفصل عن الاشكال الاخرى من الكفاح في سبيل استقلال الوطن ، وتنمية البلاد ، وتحقيق نظام بين الدول يسوده العدل والانصاف . ان رفض الهيمنة يشمل ايضا رفض الهيمنة الثقافية . فهل يستغرب بعد هذا ان وجدنا ان الدول التي تجمعت فيها ثروات العالم ، هي نفس الدول التي تنتج اربعة أخماس ما يطبع من كتب في العالم .

ان جدول أعمال هذا المؤتمر يعكس الصفة الشمولية التي يتميز بها الكفاح في الوطن العربي . فالموضوع الاول منه يتعلق « بالنضال والثورات في الادب العربي قديما وحديثا » . ولا شك انكم في هذا الاطار ، سوف تدرسون بشكل خاص ما للنضال من دور كبير في هذا الشأن ، لان النضال ، بالفعل ، عنصر لا غنى عنه للسير الى الامام في طريق التقدم والتحرر . ان النضال يستمد قوته من الشعور بأن المصلحة العامة ينبغي أن تتغلب على المصلحة الخاصة ، وانه توجد قيم مقدسة لا بد من احترامها والدفاع عنها في كل زمان ومكان ، وأذكر من تلك القيم : الاستقلال ، والعدالة ، والحرية ... فهل يجوز للكاتب العربي آن لا يلبي دعوة النضال ، وأن لا يسلك سلوك المناضل في حياته الخاصة وفي آثاره الادبية ، بعدما أصبح واضحا لكل ذي بصيرة ، آن النضال من أهم العوامل التي يمكن بها أن ينهض العالم العربي نهضة ميمونة ؟

ان النضال يعني ـ أول ما يعني ـ العمل ، والترفع عن النقائص ، والجود بالنفس ، والشجاعة ، والمثابرة . فالنضال يقتضي من المرء أن يوفق بين القول والعمل ، وأن يجعل كلا منهما في خدمة المثل العليا . ولا يخفى على أحد ان العالم العربي لا يزال يعاني من هذا الجرح الاليم الذي يتمثل في فلسطين المغتصبة . وقد أحسنتم الاختيار حين أدرجتم موضوع : « قضية فلسطين وأثرها في الادب العربي الحديث » ، كنقطة ثانية في جدول الاعمال . ولعل قصدكم من ذلك هو الحرص على تحاشي المناقشات التجريدية في قضايا الادب . وسوف يتضح لكم ، عندما تتناولون هذه النقطة الثانية ، فيما اذا كانت المشكلات المنبثقة عن مناقشة النقطة الاولى ، قد عولجت معالجة صحيحة . أما النقطة الثالثة والاخيرة من جدول الاعمال ـ وهي تتعلق بموضوع « الطفل في الادب العربي » ـ فهي لا تخلو من أهمية ، لانها ستكون منطلقا للحديث عن موضوعات هامة ـ كما سوف نرى ـ اذ لا بد ـ في معالجتنا لقضايا الادب ـ من أن ننظر اليها نظرة تاريخية ، وأن ندرسها دراسة تحليلية اجتماعية .

ليس الهدف آذن ، من اقامة هذا المؤتمر ، هو تقديم عرض شامل للادب العربي المعاصر ، لا ... ولا ذكر المنجزات في حقل الادب . فكلنا نعلم ان فنون الادب العربي ازدهرت ازدهارا كبيرا خلال القرن المنصرم ، أي منذ بداية عصر النهضة ... على ان القضايا التي سوف تتركز عليها مناقشاتكم ـ وأعني بها قضايا التحرير والثورة الاجتماعية في الادب العربي الحديث ـ تجعلنا نتساءل : آلا ينبغي أن يكون تطور الادب العربي والثقافة العربية ، مماثلا ومواكبا لتطور قضايا التحرير والثورة الاجتماعية ؟ والشيء الذي يدعونا الى هذا الاعتقاد ، هو ان وضع الادب والاديب والكتاب ، يندرج اليوم في اطار جديد يتميز على الاخص بتصفية الاستعمار ، والسعي الحثيث لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ونشر التعليم على أوسع نطاق ، وبروز العالم العربي على مسرح الحياة الدولية .

وهل هناك من ينازع اليوم في ان الثقافة العربية لا ينبغي أن تقنع ـ كما كان الشأن في الماضي ـ بالالتفات الى المجد الغابر ، والتغني

(*) الكلمة التي القاها وزير الاعلام والثقافة الجزائري في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر الادباء العرب العاشر في الجزائر .

بالتراث الزاهر ، والتطلع الى مستقبل نحسبه حافلا بالانتصارات الرائعة ، وان هو في الواقع الا سراب . فمن العبث أن نتسلى عن حظنا العاثر ، بذكر المجد الغابر ، أو باتخاذ موقف سلبي من قضايا العصر ، وانتظار ما عسى أن يأتي به المستقبل ... وما المستقبل في الحقيقة الا ما نصنعه بسواعدنا وأيدينا ، وما ننجزه من عمل في هذه الحياة . فالمهم اذن هو التصميم والجهد المتواصل الذي لا يتوانى على مر الايام . ولا شك ان تطور القضية الفلسطينية خلال السنوات الاخيرة يقدم لنا البرهان الساطع على ذلك . فقد استطاع العرب - بعدما تعلموا الدروس القاسية من حرب حزيران (حزيران) ١٩٦٧ - أستطاعوا أن يقفوا في وجه الصهيونية وحليفتها الامبريالية ... على أن هناك تحديات اخرى غير التحدي الصهيوني ... وميادين أخرى للكفاح يمكن أن يخوضها رجال الفكر والادب ، وأعني بذلك المعركة الحاسمة من أجل تنمية الاقطار العربية ، لصالح جميع المواطنين ، لا لصالح طبقة معينة تتمتع بالامتيازات .

ومن الناس من لا يزال في عصرنا هذا ، يتحدث أو يكتب عن تنمية الاقطار العربية علميا وتقنيا وسياسيا وثقافيا ، بنفس العبارات وبنفس الطريقة التي كانت تطرح بها هذه المشكلة وتناقش منذ حوالي قرن ، في عصر النهضة . وكانت الاوساط المثقفة آنذاك تناقش هذه المشكلة على أساس الرجوع دائما الى ما حققه الغرب الذي كانت بيده السيطرة تقدما ورقيا . ولا شك ان كل واحد منا يتذكر أو يعرف جيدا الكتب التي وضعها أولئك المؤلفون ومن أتى بعدهم . وقد برز فيها اتجاهان رئيسيان يختلفان الى حد ما باختلاف المؤلف ، والوسط الذي عاش فيه ، والتجربة التي عاناها . فهناك اتجاه انتقائي قد أخذ من الغرب بعض المبادىء : القومية ، والتقنية ، والمنهج العقلاني ، والنظام البرلماني البورجوازي ... والاتجاه الثاني هو الاتجاه السلفي الذي كان له اثر عميق في الدعوة للرجوع الى الاسلام الاصيل ... أما اليوم ، فان المفكر الثوري ، أو على الاقل ، المفكر الذي ربط مصيره بمصير شعبه ، ليربأ بنفسه من أن يطرح المشكلة بنفس هذه العبارات، وأن يظل دائما متأرجحا بين هذين الاتجاهين ، لا يدري الى أي منهما يميل .

أننا نعلم اليوم بأن الحضارة غير محصورة في مكان واحد من العالم ، وان اتخاذ القرارات لا تنفرد به جهة واحدة ، وان طريق التنمية ليس واحدا ، بل توجد طرق عديدة يمكن للدول ان تنتهجها . ان البشرية تسير اليوم نحو عالم يريد أن يحقق الوحدة في التنوع، ولذلك فان المنطقة العربية ينبغي أن تصبح جزءا من هذا الكل المتكامل، وان تحافظ داخل هذا الكل على خصائصها ، كغيرها من المناطق الثقافية الاخرى . ان القلق الذي كان يساور بعض المفكرين ، بسبب تخوفهم من العواقب الوخيمة الناجمة عن مسايرة العصر ، وكذلك بسبب تخوفهم من الاستلاب المتمثل في تغريب أنماط حياتنا ... هذا القلق الذي كان يساور بعض المفكرين لم يعد له مبرر ، خاصة اذا عرفوا أن المطلوب منهم ليس هو التخلي عن أصالتهم ، ليدفعوا بها ثمن التطور والتقدم ، بل المطلوب منهم اليوم هو أن يعملوا ، وأن يجدوا في العمل ، لكي يعطوا شكلا جديدا للثقافة العربية التي هي ثقافتكم الاصيلة . فلا يجدر بهم اليوم أن يرضوا بالتبعية والتقليد ، بل يجب عليهم أن يبدعوا وينشئوا .

ان الزمان ينقضي الى غير ما رجعة ، كالنهر الذي يتدفق بدون انقطاع ... وكما انك لا تستطيع أن تغمر بدنك مرتين في ماء واحد من النهر ، فكذلك ليس في مقدور أحد ان يرجع القهقرى في مسيرة الزمان ، أو يوقف ديمومته . فالرجوع الصحيح الى الاصل لا يعني ان نعيش كما كان يعيش اجدادنا ،بل المقصود بذلك هو ربط الحاضر بالماضي ربطا متكاملا ، مع أخذ الواقع الاجتماعي بعين الاعتبار . فماذا أردنا أن نكون في مستوى المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا ، واذا أردنا أن نخدم ثقافتنا القومية بطريقة ايجابية ، فما علينا الا أن نعمل بجد ونشاط ، لاعداد المستقبل المنشود .

وهنا أيضا لا بد من الاشارة الى خطأ جسيم كثيرا ما نجم عنه سوء التفاهم بين المثقفين . فمن الاراء الشائعة التي نصادفها بين الحين والاخر في الانتاج الفكري العربي ، الاعتقاد بأن كل واحد منا حر تماما في تفكيره ، كما لو ان الدماغ عبارة عن قطعة من الشمع الرخو الذي تستطيع أن تطبع عليه ما تشاء ، أو تمحو مما طبعته ما تشاء ... وبما ان المطلوب منا هو المحافظة على التراث ، بعد احصاء ما خلفه الاولون من آثار ، وبما ان المطلوب منا أيضا هو انتهاج طريق من طرق التنمية من أجل اعداد المستقبل المنشود ، لذلك يتصور البعض بأننا نحسن صنعا اذا نحن انتقينا لانفسنا بعض الامور الصالحة من هنا وهناك ، بدون أن نأخذ بعين الاعتبار ما كنت قد اشرت اليه في بداية هذه الكلمة ،اعني الحقائق التاريخية،والاجتماعية ،والاقتصادية، والنفسية .

ولعل أفضل طريقة لتفادي هذا الخطأ الفاحش هو ان نحاول اعادة التوازن المختل في الانتاج الفكري العربي .

ولقد تميز عصر النهضة الاولى بازدهار الانتاج الادبي ، ولا يزال هذا النوع من الانتاج يحرز قصب السبق ، لان المؤلفات في العلوم المحضة ، لا تمثل الا ٥ ٪ من مجموع العناوين التي تصدر في العالم العربي . ولعله آن الاوان أن نقوم بتعميم وتعزيز التجربة التي أخذت بعض الاقطار العربية تسعى لانجازها ، وأعني بذلك تنظيم البحث العلمي ، وتنميته ، وتشجيع الادباء على الانتاج في ميدان العلوم الانسانية . ومن المؤسف ان عددا قليلا من الطلبة العرب يتحمل مشاق البحث العلمي الرصين . ان الواحد منهم اذا أراد أن يخوض هذا الميدان ، فانه في أكثر الاحيان يهاجر الى الخارج ، ويقوم ببحثه في بيئة لها قيمها الخاصة ، وفي وسط أجنبي مقطوع عن واقع بلاده .. على اننا نستثني من حكمنا هذا بعض الافذاذ من ذوي النبوغ . ولكنهم بالفعل أفذاذ ، أو بالاحرى شواذ . ان النهضة الحقيقية سوف تتحقق يوم يتوصل عدد كبير من رجال الفكر المشتغلين في حقل العلوم والاداب ، الى المستوى المطلوب في المعرفة ، والى اكتساب عادات في التفكير لا ترسخ في النفس الا عن طريق الممارسة الطويلة للبحث العلمي .

ولقد يتساءل البعض عما اذا كان من حق الادب أن يرقى الى هذا المستوى من الطموح ، وعما اذا كان في مقدور الاديب حقا أن ينجز عملا من شأنه أن يحدث هذا التحول في النظرة الى ذاته ، والى بني جنسه ، والى الكائنات . ولا شك ان وجودكم في هذا المكان ، وما أدرجتموه من موضوعات في جدول أعمالكم ، يعطيان لنا الجواب الشافي الكافي : فقد اطرحتم أضغاث الاحلام ، وتحاشيتم المشكلات المزيفة المتمثلة في بعض الاراء التي أكل عليها الدهر وشرب : كالقول بأن الكتابة غاية في حد ذاتها ، وان الكاتب الحق لا يجدر به ان يهتم بالوقائع اليومية ، وان الانسان اذا أراد ان يبدع فعليه أن يعتزل الناس ، وان الاثر الادبي يقترب من الكمال على قدر ما ينطوي الكاتب على ذاته ، وانه لا بد من فصل الشكل عن المضمون ... وما الى ذلك من الاراء الباطلة .

ولا يخفى على أمثالكم من الادباء النابهين ان كل ثقافة تتضمن في ظاهرها أو في باطنها فكرا عقائديا ، وانه من الخطأ الفصل بين النشاط الادبي والنضال السياسي ، لان الاديب ينبغي ان يعيش في وسط الشعب ، كما يعيش السمك في وسط الماء . فالكاتب لا يستطيع ،

بارادته وحدها ، ان يؤثر على قيمة آثره الادبي . أما الاسلوب ، فليس في الواقع الا وسيلة للتعبير عن شخصية الكاتب . وبكلمة مختصرة ، فلا يوجد أي تعارض بين الانخراط في الحركة النضالية ، وبين ممارسة النشاط الادبي .

ان أقل ما يمكن ان ننتظره من الاديب العربي ، هو أن لا يجعل الناس بكتاباته يتهربون من مسؤولياتهم ، ويستسلمون للواقع . فبواسطة الاثر الادبي يمكن توعية الناس بمشكلات الحياة وحقائقها ، ولذلك فان الاديب أقدر على التأثير في النفوس ممن يحلل المشكلات والحقائق تحليلا تجريديا ، أو من يقوم بالدعاية لنشر بعض الافكار والمبادىء . والاثر الادبي بعد هذا من أحسن الوسائل لشحذ القرائح ، وتنمية الفكر النقدي ، اذ بدون ذلك نقع في الجمود والتبعية ، وقد عانينا منهما ما عانينا .

ان المناقشات حول اختيار الطريق الانسب لتحقيق التطور ، تفضي في آخر الامر الى تبادل الرأي حول اختيار الحضارة التي تناسبنا . فهل يجدر بالكتاب ـ وهم من رجال الثقافة بالاصالة ـ هل يجدر بهم أن يضنوا بارائهم السديدة في هذا الموضوع الخطير ؟ وبالاضافة الى هذا ، فلا بد من الاشارة الى ان الانتاج الادبي العربي لا ينبغي ان يكون محصورا في نطاق الوطن العربي . فلا شك أننا ، اذا عملنا من أجل تعريف الاجانب باثارنا الادبية عن طريق الترجمة ، فسوف نساهم بذلك في احلال العالم العربي المحل اللائق به بين الامم . ولذلك فمن واجبنا أن نولي مزيدا من الاهتمام ، وان نقدم مزيدا من المساعدة للاشخاص القلائل ، وللهيئات التي تحاول أن تعرف بأدبنا في البلدان الغربية على الخصوص .

لقد أصبح المجال اليوم أوسع من ذي قبل لكي يحقق العالم العربي نهضة جديدة مرموقة . وبالفعل ، فقد استطاعت بعض الاقطار العربية أن تضع استراتيجية للتنمية ، وهذه الاستراتيجية أخذت تتحقق « من الشعب والى الشعب » ، كما يقول شعار الثورة الجزائرية . ان الانجازات الكبرى التي حصلت في ميدان تعليم البنين والبنات ، وتكوين الاطارات على جميع المستويات ، انما بمثابة ثورة صامتة . ولكن هذه الشبيبة المتعطشة للمعرفة ، في حاجة الى تعليم عصري متجرد من الخرافات ، ومعزز بالبحث العلمي الرصين . ومن جهة أخرى ، فان وسائل الاعلام الجماهيري لا تفتأ تتطور . وهنا يبرز الدور الكبير الذي يجب أن يقوم به رجال الثقافة ، وتبرز كذلك مسؤوليتهم العظمى امام التاريخ .

انني أتمنى أن يكون مؤتمر الادباء العاشر مرحلة هامة في هذا الطريق الشاق الذي لا بد من أن نسير فيه الى النهاية ، لكي ننظر الى ثقافتنا وتاريخنا نظرة جديدة . وعندما نصل الى نهاية هذا المطاف، فان العالم العربي سوف يكون مثالا يقتدى في حضارته المحافظة على توازنها ، حبيث ان الازدهار الاقتصادي الذي سوف يتحقق باذن الله، لن يؤدي الى مسخ الثقافة ، ولن يلحق أي ضرر بشخصية الانسان . فبمثل هذه الثقافة الجديدة نستطيع ان نؤكد أصالتنا وتمسكنا بتاريخنا ، وهذا هو الشرط لاستئناف مسيرتنا الى الامام ، واشعاع الحضارة العربية الاسلامية .

الفكر العربي
في معركة النهضة
تاليف الدكتور انور عبدالملك

« هذا الكتاب موجه في المقام الاول الى قطاع محدد من جمهور القراء في العالم العربي ، هو قطاع الجيل الجديد من شبابنا العربي في كل مكان ، شباب الريف والمدن ، شباب الفكر والعمل ، شباب الانتاج والعلم والسلاح . ربما يجد فيه بعض رجال الفكر والعمل من جيلنا ـ الذي كان « على موعد مع القدر » ـ اسهاما في نهضتنا الحضارية . نقول « البعض » ، اذ ان منهج التنقيب عن مستقبل الفكر العربي في عصر النهضة الحضارية ، وهو المنهج النابع من تغيير الاطار المعرفي ـ وهو جوهر عملنا النظري القائم منذ ١٩٥٩ ، والمرتقب، الا وهو تجديد الفلسفة الاجتماعية على ضوء تفاعل حضارات الشرق والغرب ـ نقول : ان هذا المنهج وذلك التجديد النظري يمتان على وجه التحديد الى مرحلة الثورة الوطنية التقدمية وغايتها النهضة الحضارية ، وهي مرحلة جديدة حقا على المفاهيم والتقاليد الفكرية الموروثة للاجيال السابقة من حركتنا الوطنية المتأقلمة في اغلب الاحيان في اجواء ثقافية ـ فكرية استشراقية، اوامية، او سلفية .

وهو كتاب يتصدى للاجابة على سؤال مركزي في تحركنا العربي المعاصر ، الا وهو : كيف يمكن ان نقيم علاقة جذرية ، عضوية ، متصلة ، بين تحركنا الوطني التحرري المتجه الى الثورة الاجتماعية والهدف الاشتراكي من ناحية ، وبين اقامة فلسفة تواكب هذا التحرك الذي فرض نفسه على العالم أجمع ، تكون ، على وجه التحديد ، فلسفة النهضة الحضارية في مصر والعالم العربي ؟ » . ـ من المقدمة ـ

منشورات دار الآداب — الثمن ٨٥ قرشا لبنانيا